الاسلام حركة ابداعية شاملة في الفن والحياة

يصعب أن نفهم أي جانب منفرد من جوانب الاسلام المتعددة ، ما لم نفهم طبيعة الاسلام ، كوحدة متكاملة ..

ليس الاسلام شعائر تؤدى فحسب ، وليس الاسلام دعوة اخلاقية فحسب ، كذلك ليس الاسلام مجرد نظام للحكم ، أو نظام للاقتصاد ، أو نظام للعلاقات الدولية .. ان هذه كلها جوانب منفردة من جوانب الاسلام المتعددة ولكنها ليست هي كل الاسلام .

ان الاسلام حركة ابداعية خالقة ، تستهدف انشاء حياة انسانية غير معهودة قبل الاسلام ، وغير معهودة في سائر النظم الاخرى التي سبقت الاسلام أو لحقته .. تلك الحركة الابداعية الخالقة تنشأ عن تصور معين للحياة

بكل قيمها وكل ارتباطاتها ، تصور جاء به الاسلام ابتداء وهي حركة تبدأ في أعماق الضمير ثم تحقق نفسها في عالم الواقع ، ولا يتم تمامها إلا حين تتحقق في عالم الواقع .

وهذا هو أحد الفوارق الرئيسية بين طبيعة « المثالية» كما عرفت في الغرب ، وطبيعة الاسلام .. إن المثالية أحلام تظل أحلاما لأنها تتطلع الى عالم غير منظور ، وغير مطلوب تحقيقه ، اذ هو بطبيعته غير قابل للتحقيق في عالم الأرض ، اما الاسلام فهو حركة ابداعية لتحقيق تصور معين للحياة قابل للتحقيق ، وفي طبيعة النفس البشرية استعداد لتحقيقه ، حين تستجيب لدعوته وحين تتأثر به تأثراً إيجابياً لا يكتفي بالمشاعر أو الشعائر .

وحين تستقر العقيدة الاسلامية في الضمير البشري استقراراً حقيقياً ، فانه يستحيل عليها أن تبقى ساكنة ، يستحيل أن تظل مجرد شعور وجداني في أعماق الضمير . انها لابد أن تندفع لتحقيق ذاتها في عالم الواقع ، ولتتمثل حركة إيجابية ابداعية في عالم المنظور ، حركة تبدع الحياة كلها ، وما ينشأ عنها من ألوان وأطياف وتعمير .

ورجال الصدر الأول ــ رضوان الله عليهم ــ عندما تلقوا القرآن تلقياً حقيقياً شعروا أن كيانهم النفسي كله يتزلزل ليعاد تركيبه من جديد ، وفق ذلك التصور الجديد الذي جاءهم به الاسلام ، وان الكيان القديم الذي بني في الجاهلية ، وفق تصورات معينة للحياة ، ووفق واقع معين للحياة ، لا يمكن أن يبقى ولا أن يثبت ولا أن يرقع ترقيعاً بالتصور الاسلامي الجديد ، بل لا بد من زلزلة وتصدع كاملين في الكيان القديم ، ليعاد انشاؤه وفق هندسة جديدة ووفق تصميم جديد .

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »

ولقد تصدع ما هو أقوى من الجبل ، تصدع كيان النفس البشرية التي مسها هذا القرآن مساً حقيقياً ، ليعاد تركيبها على نسق غير مسبوق .

محال اذن حين تتم العقيدة الاسلامية في قلب أن تظل قابعة سلبية في هذا القلب ، أو أن تتحول الى عبادات وشعائر ثم تنتهي هناك ، إنها لا بد أن تنطلق محاولة ابداع

الحياة كلها وفق التصور الاسلامي للحياة وفي الطريق تأخذ العبادات والشعائر لأنها القاعدة التي تقوم عليها الصلة بين القلب البشري وخالقه ، هذه الصلة التي يستمد منها العون والتصميم والاندفاع ، كما تأخذ الفنون والآداب والتصورات وكل ما يصدر عن النفس البشرية من تعبير .

وقديكون طريق الابداع للحياة الجديدة هو تطويرها ولكنه لن يكون ترقيعها ، وفرق بين أن يكون لديك تصميم معين للبناء تنفذه شيئاً فشيئاً ، وان ترقع بناء قائماً على تصميم آخر ، ان هذا الترقيع لن يحقق لك في النهاية بناء جديداً ! .

ان الاسلام يرسم صورة معينة للحياة البشرية ، صورة متكاملة ، يحدد فيها النموذج البشري الذي يريد تكوينه ، والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي تربط هذا المجتمع ، ونظام الحكم والعلاقات الدولية التي تنظم الحياة العامة .

هذه الصورة المعينة التي يرسمها الاسلام للحياة لا يمكن

تحقيقها بمجرد قراءة القرآن تجويداً وترتيلاً ، ولا بمجرد تسبيح الله بكرة وأصيلا ، انما هي تتحقق بترجمة المدلولات القرآنية الى واقع عملي في حياة البشر ، وبترجمة التسبيح الى حركة وجدانية تتحول الى حركة منظورة في عالم الواقع ، وبترجمة المشاعر الى صور تعبيرية ليس الهدف فيها هو مجرد التعبير ، ولكن ما وراءه من حركة وتطوير ...

وهذا المعنى كان مستقراً استقراراً تلقائياً في نفوس رجال الصدر الأول ـ رضوان الله عليهم ـ ومن ثم أمكنهم أن يغيروا واقع الحياة في فترة تشبه الأحلام .

روي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

والرجل يقول: «حتى يعرف معانيهن» والمعرفة شيء غير مجرد الفهم .. المعرفة ادراك كامل ، وانفعال بهذا الإدراك يتم في أعماق النفس وأغوار الضمير .. ثم « العمل بهن ».

بهذا الادراك الكامل لوظيفة القرآن أمكن انشاء حياة جديدة كاملة لم يعرفها العرب قبل الاسلام ، وبمثل هـذا الادراك الكامل يمكن أن يحقق الاسلام ذاته في عالم النفس وفي عالم الواقع في كل زمان ومكان .

وحين يتم التكيف الشعوري في النفس البشرية بالتصور الاسلامي الابداعي للحياة ، فإن أثر هذا التكيف يبدو في كل ما يصدر عن هذه النفس ، لا على وجه الالزام والارغام ، ولكن على وجه التعبير الذاتي عن حقيقة هذه النفس ، يستوي في هذا التعبير أن يكون صلاة في المحراب أو سلوكاً مع الناس ، أو عملاً فنياً وجهته تصور الجمال وتصور الحياة بما فيها من القبح والجمال .

وحينما أقول أن الأدب الاسلامي أدب موجه ، وأن له منهجاً يلتزمه ، فلا أعني بذلك التوجيه الاجباري على نحو ما يفرضه أصحاب منهب التفسير المادي للتاريخ ، إنما أعني أن تكيف النفس البشرية بالتصور الاسلامي للحيـاة هو وحده سيلهمها صوراً من الفنون غير التي يلهمها إياها

التصور المادي أو أي تصور آخر ، لأن التعبير الفني لا يخرج عن كونه تعبيراً عن النفس ، كتعبيرها بالصلاة أو السلوك في واقع الحياة ، وليس الأدب الاسلامي هو وحده الذي يتحدث عن الاسلام أو عن حقبة من تاريخه أو عن شخص من أشخاصه ، إنما هو التعبير الناشىء عن امتلاء النفس بالمشاعر الاسلامية وكفى .

ولا يمكن تقسيم الاسلام الى اجزاء ، وفصل جزء منه عن الآخر ، لا في طبيعة الاسلام ولا في آثاره في النفس البشرية أو في واقع الحياة .

فليس الاسلام تفسير آية أو حديث في جانب ، ثم دعوة الى الجهاد في جانب ، ثم عرض طرف من السيرة في جانب ، ثم أدب أو فن مستقل في جانب ، ثم نظام حكم محلي أو دولي في جانب .

كلا .. ان الاسلام تصور كامل للحياة ، ومنهاج كامل للحياة ، ثم هو حركة ابداعية لا تقف عند الواقع بما فيه من خطأ وصواب ، ومن قوة وضعف ، ومن نقص

وكال ، كما أنها لا تقف عند تصور تجريدي مثالي تعيش عليه في عالم الوهم والخيال .

ان الاسلام يرسم صورة للحياة في النفس ، ويكيف النفس بهذه الصورة ، فتندفع في حركة واعية مبدعة الى تحقيقها في عالم الواقع بتطوير الحياة كلهـا في هذا الاتجاه ، والادب والفن يشتركان في عملية التطهير والتغيير ، شأنهما شأن كل حركة أخرى في موكب العقيدة الاسلامية الشامل والصلاة والجهاد في سبيل الله ، ليسا حركتين منفصلتين انما هما حركة استمداد للطاقة وحركة تصريف لهذه الطاقة، فهما متصلتان كل الاتصال .

هذا التصور الكامل لطبيعة الاسلام هو الذي نحب أن يستقر في أخلاد المسلمين ، وفي المقدمة دعاة الاسلام في هذا العصر ، لأنه التصور الذي استقر في أخلاد الصدر الأول فأبدع الحياة الاسلامية الجديدة ، فكانت بدعاً في عالم الحياة كلها وما تزال .